هند أبـــو الشعـــــــر ودورهـا فـــي التوثيق التاريخي للمدن الأردنية كتاب إربد وجوارها أنموذجاً

د . علاء كامل سعادة *

أحسنت مؤسسة عبدالحميد شومان في اختيارها الأستاذة الدكتورة هند غسان أبو الشعر ضيف العام لمنتداها الثقافي، بوصفها أديبة ومؤرخة ومؤلفة، كيف لا، وهي أحد أبرز علماء التاريخ والأدب في بلدنا الأردن، وأحد أعمدة بيت الشَّعر الأصيل، وأحد كراسي البحث الأكاديمي العلمي في الجامعات الأردنية، وتحديدًا في جامعتنا الحبيبة؛ جامعة آل البيت.

أولاً: الأستاذة الدكتورة هند غسان أبو الشعر النمري الحصنية (نسبة لبلدة الحصن)

عندما تمطر السماء على ربوع إربد والحصن، فإن التراب المتعطش لهبة السماء ينتظر البرق والرعد بلهفة ودفء؛ ليـــورق الزهر وروده

* رئيس قسم التاريخ والجغرافية التطبيقية – جامعة آل البيت.

ربيعًا يانعًا متألقًا، مثل قطاف الزيتون الذي لا يخرج زيته إلا بعد ضغوط الحياة، ومكابدة حلوها ومرها؛ فترتفع درجة الحرارة شيئًا فشيئًا، كشمس نيسان وحزيران، فيخرج زيتًا ذهبًا أصفر مخضرًّا حلو المذاق، تطيب به النفس، كرائحة ورد الصحراء في الفدين(المفرق).

ثانيًا: الأستاذة الدكتورة هند أبو الشعر ومنهج البحث التاريخي:

يلمس المتبصر في اهتمامات هند أبو الشعر البحثية، مدى عمق مفهوم البحث العلمي التاريخي، وجدية وأصالة التطبيق، سواء في أعمالها أو في ما تمليه على طلبتها في مرحلة البكالوريوس عامة، وطلبة الماجستير الذين تشرف على رسائلهم بشكل خاص، فقد ناقشت بمعيتها العديد من رسائل الماجستير لطلبتها، كما ناقشت هي العديد من طلبتي، وكنت ألمس، في أثناء مناقشتها، دقة وموضوعية علمية يكمن بين ثناياها حرص وأمانة على منهج البحث العلمي التاريخي، بالإضافة إلى إثراء المعرفة البحثية الخاصة بموضوع الرسالة، فهي تبحث، دومًا، عن كل جديد في أمهات الكتب والمخطوطات والسجلات والوثائق المتعلقة بتخصصها ومجالها التاريخي والأدبي.

فمن حسن الطالع أننا نجتمع معًا في التخصص الدقيق نفسه في التاريخ، وهو التاريخ الحديث العثماني والمعاصر.

تمتلك هند قدرة عميقة ومتخصصة في توظيف المصادر والمراجع العلمية التاريخية لحبك وصياغة الحدث التاريخي. فهي تقوم بتفتيق الروايات التاريخية، والبحث المتعمق في مدلولات الرواية، وفي المخطوط التاريخي؛ لاستخراج البنية التاريخية، لإظهار الدلائل والبراهين والحجج التي تعلل وقوع الحدث.

بمعنى آخر، فإن الدكتورة هند ليست نمطية كغيرها في سرد الرواية والحدث التاريخي،

بل إنها تقف على محطات هامة ومفصلية في مؤلفاتها، كل ذلك من شأنه تحسين ورفع مستوى المعرفة عند القارئ، سواء المختص أو قارئ التاريخ.

وإن القارئ لأبحاثها ومؤلفاتها يلمس، وبلا شك، الأمانة العلمية التاريخية في التوثيق الدقيق؛ لا بل يرى بعدًا آخر يمكن أن أصفه بالبعد الوجداني؛ أي إن هند تمتلك محاكاة النص وإعادة إخراجه ليكون خادمًا للتاريخ، فمثلًا سجلات المحاكم الشرعية ودفاتر الطابو ودفاتر الإحصاءات العامة لم تعد بشكل رواية وحدث تاريخي، لكن قدرة الباحث المختص، من خلال الاطلاع الواسع والخبرات العملية، تمكنه من تطويع النص، أيًّا كان، وجعله مادة تاريخية تعتمد على مصدر تاريخي أصيل.

وكانت، ولا تزال، الصحافة الشغل الشاغل في دراساتها البحثية؛ لأن الصحافة مصدر أصيل مهم من مصادر التاريخ الحديث والمعاصر، يحاكي الواقع المعاصر لصدور الصحيفة؛ فهي نبض الأحداث اليومية ومجمع لتعدد التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والثقافية. وقد وضعت هند العديد من المؤلفات التاريخية المتعلقة بالصحافة، وعملت عضوًا في لجنة إصدار سلسلة الوثائق الهاشمية ١٩٩٤-٢٠٠١م بمعية فريق بحثي برئاسة الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت.

أما اهتمامات الدكتورة هند في المصادر والمراجع العلمية التاريخية فهي:

- سجلات المحاكم الشرعية العثمانية.
- السالنامات العثمانية.
- سجلات البلديات العربية في التاريخ العثماني الحديث.
- دفاتر الطابو.
- الصحافة العربية في فترات التاريخ الحديث والمعاصر.

ـ كتب المذكرات الشخصية.

ـ كتب الرحالة الجغرافيين العرب والأجانب.

ثالثاً: شخصية الدكتور هند أبو الشعر ومزاملتي لها:

إن شخصية هند أبو الشعر متزنة، وأسلوبها شيق في الحوار، كما تطرح رأيها ووجهة نظرها بكل احترافية وخبرة تنم على معرفة وخبرة، ويلمس المتتبع لحديثها جدية ورصانة، ورأيًا فيه معرفة وخبرة في كيفية معالجة الأمور. ولحديثها يشتاق الزميل المختص والتلميذ الدارس.

أما بالنسبة لهيئتها وصفاتها، فهي دومًا أنيقة في مظهرها كما في حوارها، وتهتم دومًا بالورد والزرع الأخضر اليانع الذي يلفت نظر كل من يدخل إلى مكتبها الجميل الراقي.

لقد زاملت الأستاذة الدكتورة هند منذ أن تم تعييني في جامعة آل البيت العام ٢٠١٣م، علمًا أن الدكتورة هند تعد من مؤسسي قسم التاريخ في جامعة آل البيت العام ١٩٩٣/ ١٩٩٤م، والحقيقة أن أول معرفتي بها كان عندما زرتها في الجامعة الأردنية، حين كانت تشغل منصب مديرة مكتبة الجامعة الأردنية، إذ كانت تقضي إجازة التفرغ العلمي.

وتعد الدكتورة هند وفية لوطنها وقضاياه، وحجم وفائها يزداد رتمه كلما اتجهنا نحو الشمال، حيث إربد والحصن، تحديدًا، فقد كتبت وألفت وأنجزت العديد من الكتب والأبحاث العلمية عن وطنها الأردن.

رابعًا: هند أبو الشعر ودورها في التوثيق التاريخي للمدن الأردنية- كتاب إربد وجوارها أنموذجًا

جعلت الباحثة هند أبو الشعر من نفسها مختصة، إن جاز التعبير، في (ذاكرة المكان) داخل

مدن وقرى ونواحي الأردن؛ إذ اهتمت بتوثيق تاريخ المدن والقرى، واعتمدت في ذلك على المصادر التاريخية الأصيلة من سجلات ووثائق وصحافة معاصرة لهذا الحدث أو ذاك.

أما بالنسبة لكتابها (إربد وجوارها، ناحية بني عبيد ١٨٥٠ – ١٩٢٨م)، فإن الكتاب يبدأ في التاريخ الحديث(١٨٥٠م)، ويستمر حتى التاريخ المعاصر(١٩٢٨م)، فقد أشارت هند في مقدمة كتابها هذا إلى أن سبب اختيار العام ١٨٥٠م في منتصف القرن ١٩ الميلادي بداية لبحثها، هو اتخاذ إربد رسميًّا قصبة ومركزًا لقضاء عجلون؛ لذا فقد أصبحت إربد مقرًّا للحياة الإدارية.

ثم استمرت الباحثة في تتبع تاريخ إربد وجوارها، ليس مع نهاية العهد العثماني العام ١٩١٨م وحسب، بل استمرت في تتبع الأحداث التاريخية، ولوجًا في بدايات الثلث الأول للتاريخ المعاصر حتى العام ١٩٢٨م، وقد عللت الباحثة ذلك بأنه، وخلال العقد الأول بعد زوال الحكم العثماني؛ أي (١٩١٨ – ١٩٢٨م)، استمر العمل بالأنظمة الاقتصادية والإدارية ذاتها التي كان معمولًا بها في العهد العثماني، مثل استمرار التعامل بالنقد، والطوابع، والأنظمة والتعليمات والقوانين السابقة، ثم بدأ التغيير والتبديل بشكل تدريجي؛ فأصبحت السنوات العشر اللاحقة لانتهاء العهد العثماني أو ما تسمى (الفترة الانتقالية)، ذات تغييرات تدريجية، ثم بدأت تظهر، بشكل واضح، الهوية المحلية للدولة الأردنية مع تأسيس المجلس التشريعي الأردني الأول العام ١٩٢٨م، الذي وثقت ونشرت جلساته في الجريدة الرسمية.

وإربد، شأنها شأن بقية المدن والقرى الشامية، لها ارتباط مع من حولها من المدن السورية والفلسطينية القريبة منها، مثل دمشق التي تشكل بعدًا تجاريًّا، وبخاصة (أهالي الميدان) في ثمانينيات القرن ١٩م، فأصبحت قصبة إربد مركزًا لتسوق السلع الدمشقية وباقي المدن الأخرى كحلب وحمص وحماه، فقد سكن قسم لا بأس به من التجار السوريين في إربد،

ومارسوا العمل التجاري، وتملكوا في قصبة إربد، وكذلك فعل قسم من أهالي قرى فلسطين ولبنان.

وهنا لا بد من الإشارة الى أن وحدة الجغرافية السياسية للمنطقة كانت عاملًا مهمًّا في تشجيع سائر العناصر الشامية واستقطابها؛ لأن حركة الأهالي والتجار كانت ميسرة للغاية، فلا توجد حدود تمنع، ولا قوانين تقف حائلًا بين التجار في أن يجوبوا المناطق شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا؛ فبلاد الشام كانت، لرواجها الاقتصادي، تشمل ولايات عدة تابعة للدولة العثمانية هي: ولاية سوريا(دمشق) وهي الأوسع انتشارًا والأشمل، وولاية حلب، وولاية صيدا/ بيروت، وولاية طرابلس.

أما كتاب إربد وجوارها؛ فيقع في ٧٠٦ صفحات، نصيب المادة العلمية منها ٥٦٣ صفحة، أما بقية الصفحات فهي عرض للمصادر والمراجع، وقائمة للملاحق، وقوائم عديدة للفهارس. أما محتويات الكتاب فهي على النحو التالي:

١. **الغلاف**: وهو مثبت فيه عنوان الكتاب واسم المؤلفة، وتاريخ إصداره وطباعته العام ١٩٩٥م.

٢. **الإهداء**: وفيه تذكر الباحثة والدها الذي تستحضر وجوده، إذ تقول: (حضورك في ذاكرتي وسلوكي دائم، إليك أهدي هذا الجهد الأكاديمي، وهو حلم من أحلامك، وقد كنت دائمًا تتمنى أن ترى دراسة لهذه المنطقة التي انتميت إليها وأحببتها بصدق، وها هي، هديتي إليك).

٣. **كلمة شكر وتقدير**: وتقدم الباحثة في كتابها كلمة شكر وتقدير للأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت؛ لتمكينها وتعليمها استخدام سجلات المحاكم الشرعية في العهد العثماني وتوظيفها باعتبارها مصدرًا أصيلًا مهمًا من مصادر التاريخ العثماني الحديث،

إذ قالت: (وللأستاذ البخيت الفضل في إدخال هذا التوجه بين مجموعة من طلبته، ندين له بالتقدير ونحفظ له هذه الريادة المتميزة)، وكذلك تقدم المؤلفة الشكر والتقدير للأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري، صاحب الفضل في إيصال وتعلم، والتدريب على فن منهج البحث العلمي التاريخي، إذ قالت: (أعترف له بحضوره الدائم وتأثيره على منهجي وتفكيري)، وأيضًا تقدم الباحثة هند الشكر الموصول الى مكتبة الجامعة الأردنية والقائمين على مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة، وكذلك مكتبة جامعة اليرموك، ودائرة الأراضي في محافظة إربد، كما تقدم الشكر لجامعة آل البيت ممثلة برئيسها آنذاك الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيث، وإلى معالي الدكتور رجائي المعشر رئيس مجلس إدارة بنك الأعمال، وكذلك لسائر الداعمين لإنجاز هذا العمل الأكاديمي البحثي التاريخي المهم؛ أعني كتاب إربد وجوارها.

٤. **المحتويات**: وتناولت فيها جميع ما احتوى عليه الكتاب من المقدمة، مرورًا بدراسة علمية للمصادر التي اعتمدت عليها الباحثة في إنجاز كتابها وإعداده، ثم عرجت على الفصول التي اشتمل عليها الكتاب وهي خمسة فصول: جغرافية المنطقة، والسكان، والإدارة، والحياة الاقتصادية، والحياة الاجتماعية، ثم وضعت مجموعة للفهارس في نهاية الكتاب شملت أسماء الجماعات والعشائر والقبائل، وأسماء الأماكن والآبار والعيون والأودية والأراضي والأحواض، وفهرس المصطلحات والميادين والمحلات في دمشق، وفهرس النواحي والأقضية والألوية، وفهرس الأعلام. واختتمت الباحثة الكتاب بملخص باللغة الإنجليزية يضم الجداول، والخرائط، والمصادر والمراجع.

٥. التقديم: كتبه الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، رئيس جامعة آل البيت آنذاك، وبيّن فيه أن حركة الإصلاح والتنظيمات المفروضة على الدولة العثمانية، منذ مطلع

القرن ١٩م، حظيت بعناية المؤرخين والباحثين من سائر الجامعات والمراكز البحثية، وأشاد بعمل الباحثة في إنجاز الكتاب المعتمد على مصادر أصيلة، حيث قال: (استطاعت الباحثة، عن طريق ملاحظاتها الذكية ومقدرتها الممتازة على التخيل، أن تستشعر روح التاريخ في هذه المنطقة المحلية، فتنبهت للجوانب الاجتماعية وتنوع النسيج الاجتماعي في منطقة الدراسة، واستوعبته تحليلًا، وأجادت التعبير عنه).

٦. مصادر الدراسة: اعتمدت الباحثة على جملة من المصادر الأولية الأصيلة هي: دفاتر الطابو (ملكية الأراضي)، ودفاتر المالية، وسجلات التسوية والخرائط، وسجلات المحاكم الشرعية وعقود الزواج، وسجلات الأديرة، والمذكرات غير المنشورة، ووثائق مديرية المكتبات والوثائق الوطنية، والمقابلات الشخصية، والشعر الشعبي، والسالنامات العثمانية، وكتب الرحلات.